مُقَدِّمَة

«تبدو حضارتنا للمراقب الغربي ميتافيزيقية كلها، مثلما يبدو عزف البيانو للأصم مجرد حركات للأصابع دون موسيقى».

رابندراناث طاغور، (أحد أعظم شعراء الهند، والحائز على جائزة نوبل للأدب عام 1913).

كان قد مضى علي في الهند أكثر من أربعة أعوام حين التقيت بأندريه، وهو رجل فرنسي في الثالثة والستين، خطَّ الشيب شعره (الذي اعتاد أن يربطه على شكل ذيل الفرس). لكن شعرت بأنني قابلت أندريه، المتحمس للفلسفة والكتابات الهندوسية، مرات عديدة في مناسبات ماضية. كنت في زيارة قصيرة إلى أوروفيل، البلدة التي أسستها في جنوب الهند عام 1968 ميرا الفاسا، وهي امرأة فرنسية (تجاوز عمرها التسعين) يدعوها الجميع بـ «الأم». اسم البلدة منسوب إلى سري أوروبيندو، أحد أشهر الزعماء الروحيين في الهند، الذي تستحق حياته -من سنوات دراسته في كمبريدج إلى نشاطه السري ضد الحكم الاستعماري البريطاني، ثم تَجَسُّده أخيراً بوصفه معلماً في ركن ساحر من أركان شبه الجزيرة الهندية- كتاباً أو اثنين. ومثلما قال لي أندريه، «غادرت [الأم] جسدها» عام 1973، بعد ثلاث وعشرين سنة من رحيل سري أوروبيندو، لكن بعد عدة أشهر من وصول الفرنسي الباحث عن المعرفة (وهذا من حسن حظه).

منذ أن انتقل أندريه إلى أوروفيل، نمت البلدة -وهي في الحقيقة «زاوية» هندية متوسعة- لتضم عدة آلاف من السكان، معظمهم -مثل أندريه الفرنسي- من الغربيين الذين أتوا بحثاً عن إكسير الفلسفة الهندية. وقبلت غالبيتهم -مثل أندريه أيضاً- فكرة أن الهند أمة فريدة بين الأمم. فهي تمتلك قوة معنوية وأخلاقية وروحية متفردة. الهند، كما قال، مفتاح بقاء الجنس البشري. لقد أتيت لاكتشاف السبب الذي يجعل الهند ملهمة

لمثل هذا الاعتقاد. قال أندريه بعد أن استقبلني في بيته الرحب المطلي باللون الأبيض: «حين تعيش في الغرب، في أوروبة، تشعر بالضياع كلية»، ثم أضاف ونحن نرشف عصير الخطمية: «في الغرب، عليك أن تنتمي إلى مجتمع وتتبع نمطاً معيناً. من المفترض أن تملك منزلاً، وتعمل في مهنة، حياتك كلها موجهة نحو المال. في الهند الأمر مختلف. الهند بلد فريد». وأردف مشدداً: «من دون الهند، العالم محكوم عليه بفقر المادية»، ووافقه الحاضرون الآخرون الرأي.

ولد أندريه أثناء الحرب العالمية الثانية، وعاش حياته المبكرة في تقشف ثم جند في الجيش الفرنسي وأرسل إلى الجزائر أثناء حرب التحرير. وبعد أن عاد إلى باريس، سمع في أصيل أحد الأيام عن مؤتمر يعقد في أوروفيل. ولما كان قبلها قد قرأ نسخة من «باغافاد جيتا»، أشهر كتاب مرجعي في الهندوسية، فقد عرف شيئاً عما تستلزمه الفلسفة الهندية. سرعان ما غادر إلى الهند. إلى هذه المرحلة، كانت رواية أندريه مباشرة وواضحة، لكنه لم يفسر السبب الذي جذبه إلى الكتاب أو الهند في المقام الأول. قال برقة: «بدا لي السبب واضحاً – ولا أجد مبرراً لصعوبة فهمه. لقد مارست الهند طوال آلاف مؤلفة من السنين عملية مناغمة للاختلافات والفوارق، واخترقتها لتصل إلى الوحدة خلفها. ثمة جوهر كامن في الهند لا تمتلكه البلدان الأخرى، جوهر يشير إلى وجود حقيقة روحانية تدعى الوحدة تكمن خلف تنوع الحياة». لابد أنني بدوت متحيراً، لأن أندريه شعر بالحاجة إلى التفصيل. قال: «الجنس البشري اليوم يعيش أزمة عالمية لا يمكن إلا للهند تخليصه منها، وذلك عبر إظهار السبيل إلى الوعي السامي، وتفسير التجسد ووحدة الأشياء كلها. لا يمكن لبلد آخر أن يقبل بوجود أوروفيل. لن تستطيع البلدة البقاء في الغرب –فسوف يحولها إلى طائفة».

أرادت «الأم» أن تكون أوروفيل أكثر من مجرد طائفة. لكن يصعب تجاوز سير القديسين للتعرف إلى حقيقتها. فقد خلفت وراءها ثروة عمر من النبوءات. إذ ولدت في باريس عام 1878 من أب تركي وأم مصرية، وأظهرت في طفولتها نزعة إلى «التواصل مع الطبيعة». وتمكنت أيضاً من القفز مسافات بعيدة «والتحدث مع الجن والكائنات التي

تسكن عالماً مخفياً عن عالمنا»[1]. وفي مرحلة الصبا، قامت ميرا الفاسا برحلة طويلة عبر مختلف البلدان وتعرَّفت مختلفَ الثقافات بحثاً عن مفتاح فهم الوجود البشري. وفي نهاية المطاف (1916)، انتقلت إلى الهند وقابلت سري أوروبيندو، الذي زودها بالإجابات. وأطلق الاثنان معاً حركة روحانية جديدة، تمثلت أهدافها في إبلاغ الناس بحقيقة أن الهند ستكون الوسيلة التي تنقل الجنس البشري إلى مستوى أرفع من الوعي. ودعا الاثنان ذلك «الوجود الذهني السامي». ثمة حركات مشابهة أخرى في الهند، ونساء على شاكلة «الأم». لكن صومعة أوروبيندو تظل أكثر تجذراً ورسوخاً.

قبل لقاء أندريه، زرت «معبد الأم» - وهو عبارة عن كرة ضخمة قطرها 150 قدماً تقريباً مغطاة بأقراص ذهبية تشبه أوراق الزهر. كان المنظر غريباً بحيث ذكرني بسفينة فضاء مصنوعة في هوليود لكنها هبطت في منطقة مدارية. وفي الفسحة الواسعة المحيطة بالمعبد رأيت عشرين أو ثلاثين شخصاً، يبتعد كل منهم عن الآخر مسافة محددة، ويمارسون تشكيلة متنوعة من تمارين اليوغا تحت شجرة تين البنغال قبيل الغروب. كان معظمهم من البيض. ولابد أن واحداً أو اثنين منهم من لوس أنجلوس. إذ إن سكان أوروفيل، الذين يتراوح عددهم بين ألفين وثلاثة آلاف (ويتبع معظمهم أسلوب حياة مشابهاً لأسلوب أندريه)، أتوا من مختلف أصقاع العالم، مثلما تظهر بوضوح نظرة خاطفة على دليل هاتفها - أسماء روسية، وكورية، وأمريكية لاتينية، ويابانية، وأوروبية. أما دليلي، مانوب طاغور (وهو بنغالي رقيق الصوت لا يمكن لأحد أن يأمل بالعثور على شخصية أكثر إمتاعا وبهجة منه) فقد أخبرني أن الهنود أقل عدداً مما يمكن استنتاجه من دليل الهاتف، نظراً لأن عديداً من الغربيين قد تسموا بأسماء هندية. وقال إنه شاهد «الأم» حين كان طفلاً: «بدت دوماً هادئة ساكنة وجعلتني أشعر بالهدوء والسكينة، كما أتذكر».

طلب مني أندريه أن أخبره عني وعما أريد معرفته. قلت إنني صحافي بريطاني عشت في الهند عدة سنين، وزوجتي هندية. وأريد أن أعرف السبب الذي جعل الهند تمارس مثل هذه الجاذبية القوية على كثير من الأجانب، نظراً لأنها لم تمارس هذا التأثير علي. لكن

ما لم أفصح عنه هو شعوري بأن الهند جاهدت مدة طويلة تحت عبء العظمة الروحية التي أسبغها الغربيون طوال قرون من الزمان عليها، واعتاد الهنود أنفسهم التقاطها وإرسالها مجدداً (مع الإضافات التزيينية اللازمة). وعلى مدى القرون، خصوصاً أثناء حقبة الحكم الاستعماري البريطاني وبعدها، صادق كثير من الهنود على نسخة أو أخرى من الرأي القائل إن الهند حضارة ميتافيزيقية حصراً. وبدا ذلك لمعظم الهنود بالتأكيد صورة مفضلة للذات على النظرة التحقيرية والازدرائية التي تبناها معظم، لكن ليس كل، حكام الهند الاستعماريين. فقد كتب اللورد مكولي، الذي فوض وضع أول قانون جنائي للهند، يقول إن جملة كتب الفلسفة والأدب الهنديين لا تستحق رفاً واحداً في مكتبة الكتب الغربية. والأسوأ، لكن النمطي للأسف، أن ونستون تشرشل قال إن الهند «بلد كريه يعتنق ديناً كريهاً»، و«لا يمكن أن نعدها بلداً إلا بعد أن نعد خط الاستواء بلداً»[2].

بالمقابل، ومن تراث مشابه في التشديد والتوكيد لكن أكثر تجذراً وعمقاً، كتب الروائي الفرنسي أندريه مالرو يقول: «تنتمي الهند، البعيدة عنا في الحلم والزمن، إلى الشرق القديم لروحنا»[3]. ويؤكد الفيلسوف الألماني آرثر شوبنهاور (من بين آخرين) على أن العهد الجديد المسيحي لابد أنه أتى من الهند نظراً لأنها تمتلك أرق حضارة عرفها البشر»[4]. وكل من يمنح حرية الاختيار بين مكولي ومارلو، أو بين تشرشل وشوبنهاور، لابد أن يختار بصورة طبيعية مارلو وشوبنهاور. وعلى الرغم من أن الغرب قد أنتج كثيراً من التقويمات العلمية – المعرفية المتوازنة للهند طوال السنوات المئتين والخمسين الماضية، إلا أن رأي معظم الغربيين العاديين قد تأثر إما بالموقف الرافض أو الرومانسي (كحال معظمهم حتى الآن). أغلب الهنود تحمسوا للرومانسي. كتب أمارتيا سين، العالم الهندي الفائز بجائزة نوبل للاقتصاد: «تفسيرات الأوروبيين الغريبة ومدائحهم الطريفة، وجدت في الهند جيشاً من المستمعين الذين عبروا عن امتنانهم لها وترحيبهم بها، خصوصاً بسبب تضرر الثقة بالنفس إلى حد بعيد نتيجة الهيمنة الكولونيالية». ولم تقتصر هذه المقاربة على الأوروبيين أو الماضي البعيد. فبعيد وصول الدكتور سين إلى جامعة هارفارد في أواخر ثمانينيات القرن العشرين، وجد أن كل كتاب تناول الهند في مكتبة الجامعة الشهيرة وضع في قسم «الدين»[5].

كان أندريه سيوافق على ذلك. لكن السؤال الذي أردت طرحه هو: هل تأثرت هذه النظرة الروحية إلى الهند وتحددت بالفقر المدقع المنتشر إلى هذا الحد فيها؟ لا يمكن لزائر الهند أن يتجاهل تجاور الحرمان البشري مع ثقافتها الدينية العميقة الجذور. في الهند، يبدو المقدس والمدنس مرتبطين على الدوام. بعض الفلاسفة الهنود برروا الفقر بوصفه عاقبة للأفعال التي ارتكبها الفقراء في حياتهم الماضية. ويبدو أن عقيدة التناسخ تجعل من الأسهل تجاهل الانحطاط المنتشر الآن. بل إنها توفر لبعضهم أساساً أخلاقياً للفقر. ألم يتأثر أندريه بالفقر الذي شاهده في كل مكان حوله؟ نظر إلي نظرة تنم عن شيء من السخط، وقال: «الهند بلد غني إلى حد لا يصدق لأن أهلها يفهمون -دون غيرهم- عبثية المادية». ثم أعاد توكيد هذه النقطة. ولابد أنه خمن ما أفكر فيه. في الهند هذه الأيام موجة من الإعجاب البالغ بالثروة تزداد ظهوراً باطراد. ويبدو أن نصف البلد يسعى إليها. يقول أندريه: «لو امتلأت الهند بالقنوات التلفزيونية والهواتف النقالة وغيرها من كماليات الحياة الحديثة، فإن الهنود لن يسيؤوا استخدامها ولن تثملهم. هذا الأمر لا يقلقني. هذه هي الهند».

لا يمكن إنكار رأي أندريه بوصفه تأملات غريبة وشطحات خيالية لـ«هيبي بوهيمي» أو هذيان أحد أتباع الطوائف المتحمسين. فالفرنسي الذي انشغل كما يبدو واضحاً بتعقيدات التراتيل الهندوسية (ريغ فيدا)، والمؤلفات الفلسفية في نصوص الهندوس المقدسة (أوبانيشاد)، إلى جانب مكتبة العقيدة الهندوسية المتعددة الطوابق، لم يكن من «الهيبيين»، ولا من أتباع الطوائف -بالمعنى الذي يفهمه معظم الغربيين- بكل ما تتصف به من تعصب وتزمت، وما تضمره من أفكار عن يوم الدينونة وإساءة في الحكم والتقدير وطقوس معربدة. ومعظم الأوروفيليين -كما يسمون أنفسهم- لا يشربون الكحول ولا يتعاطون المخدرات. ولا يطلب منهم التوقيع على مجموعة من المعتقدات أو الإيمان بعقيدة. لكن ما يتفقون عليه جميعهم، وما يؤكده عدد كبير من الهنود المثقفين والأميين، هو الأهمية الفلسفية والأخلاقية/ المعنوية الفريدة للهند بالنسبة إلى مستقبل العالم.

مع أن معظم سكان أوروفيل هم من الأجانب، إلا أن المشاعر السائدة فيها شائعة في الهند المعاصرة. وكذلك فإن معظم ما قاله أندريه، خصوصاً فيما يتعلق بعالم الهند

الآخر -العالم اللامادي للهند- لا يجادل به أحد في أي حفلة عشاء تقام في نوتنغ هيل، أو مونبارناس، أو بيفرلي هيلز. باختصار، تستمر روح الحكايات الرومانسية في توجيه مدركات الأجانب وكثير من الهنود أنفسهم. وفي الحقيقة، فإن العالم اللامادي متجذر في صورنا التقليدية الذهنية عن الهند، ورموزنا، ومفرداتنا، إلى حد أن أولئك الذين يرفضونه عمداً يروجون له عرضاً أحياناً.

عندما ودعت أندريه، وضع ذراعه حولي وقال إنه يحبني على الرغم من جنسيتي. فهو يكره معظم البريطانيين، كما قال معتذراً، بسبب ما فعلوه بالهند، وبسبب حقيقة أنهم يفعلون الأشياء بطريقة مختلفة، مثل القيادة على الجانب الأيسر من الطريق، ورفضهم الانضمام إلى الاتحاد النقدي الأوروبي، ولأنهم يتصرفون دوماً باستعلاء: «سوف تأخذ الهند العالم إلى مستوى أسمى. وعلى الجميع أن يفهموا ذلك، لاسيما البريطانيين».

برزت صور ذهنية جديدة وقوية للهند في العقد الأخير أو نحوه، غذاها على الأغلب نجاحها في تقانة المعلومات، ومراكز الخدمة الخارجية، وتنامي تأثير بوليود خارج الهند -وشاعت نتيجة ازدياد ثروة ونفوذ الجاليات الهندية في الولايات المتحدة وبريطانية وغيرهما- وبرنامج الهند النووي الذي خضع لكثير من التحليلات، وأعلن عنه أول مرة عام 1998. وبالطريقة نفسها التي تشوه فيها معاينة الهند من منظور ديني صرف الفكرة عنها -ويمكن أن تؤدي إلى قراءة خاطئة لما يحدث- فإن هذه الصور الذهنية الجديدة يمكن أن تضلل أيضاً. فاقتصاد الهند يتغير بسرعة وفقاً للمعايير السابقة. لكن طبيعة التغيرات ومداها يتعرضان للمبالغة والغلو أحياناً. فقد اعتاد الهنود أنفسهم بيع جلد الدب قبل صيده. وفي السنوات الأخيرة، أصبح من الشائع في الهند الحديث عنها بوصفها على شفا التحول إلى قوة عظمى.

هنالك طريقة أخرى لرؤية الهند ربما تكون أكثر صدقاً وتمثيلاً للواقع، ومن المؤكد أنها أكثر تنويراً: عبر ثقافتها السياسية الراسخة والدينامية. في أواخر تسعينيات القرن العشرين، زار روبرت مردوخ الهند لاستكشاف احتمالات إطلاق محطة فضائية وكبلية في مشروع مشترك لاستغلال السوق المتنامي للناطقين باللغة الإنكليزية. وبعد لقاء الوزراء

كلهم في نيودلهي، سافر إلى مومباي، العاصمة التجارية، للقاء ديروباي أمباني، صاحب شركة «ريليانس اندستريز»، أكبر شركة هندية في القطاع الخاص. سأله أمباني، الذي اشتهر بوصفه أذكى أفراد جيله من رجال الأعمال، عن الشخصيات التي قابلها في دلهي. أجاب بأنه التقى رئيس الوزراء، ووزير المالية وغيرهما. فقال أمباني: «آه، لقد قابلت الشخصيات المناسبة، لكن إن أردت معرفة كيف تجري الأمور في الهند فعليك أن تقابل الشخصيات غير المناسبة»[6].

كان يقصد السياسيين الفاسدين (وربما نظراءهم البيروقراطيين أيضاً). في الهند، ثمة فرصة معقولة للرجل غير المناسب للاشتغال بالسياسة في نهاية المطاف. لكن في بعض الأحيان، وربما بوتيرة أقل، ينطبق ذلك على الرجل المناسب أيضاً. وفي حين كان بيل كلينتون يذكر نفسه باستمرار في انتخابات عام 1992 بأن المهم هو «الاقتصاد»، فإن المهم في الهند هو «السياسة». إذ لا يمكن فهم التغيرات التي أصابت شخصية الهند الاقتصادية والدينية دون تقدير أهمية الثقافة السياسية التي تطغى على كل شيء إضافة إلى دور الدولة.

غرضي في هذا الكتاب تقديم تقدير تقويمي غير عاطفي للهند المعاصرة على خلفية التوقع المنتشر على نطاق واسع لانتقالها إلى مرتبة القوة العظمى في القرن الحادي والعشرين. الفصل الأول يتناول اقتصاد الهند المزدهر بالرغم من أنه يعاني حالة فريدة من عدم التوازن. ثم أنتقل إلى تقويم الدولة الكلية الحضور في الهند وحركاتها السياسية الرئيسة. يتبع ذلك استكشاف لعلاقات الهند المتفجرة بباكستان والأقلية المسلمة داخل الهند، ثم تقدير للرقصة الثلاثية مع الولايات المتحدة والصين التي ستشكل عالم القرن الحادي والعشرين. أخيراً، سوف يعاين الكتاب تجربة الهند مع الحداثة والتمدين، حيث يثبت أن قيم البلد الدينية متعددة القدرات في إعادة ابتكار نفسها في صيغة معاصرة. وأختتم الكتاب بمعاينة التحديات التي تواجه الهند في الحفاظ على نهوضها المتوقع وبروزها المنتظر على الساحة العالمية في السنوات القادمة.

نبدأ، في هذه المقدمة، بنظرة خاطفة على التأثير الدائم لأهم ثلاث شخصيات شهدتها الهند في القرن العشرين: المهاتما غاندي، وجواهرلال نهرو، وبيمارو أمبيدكار.

إذ يمكن تقديم الحجة على أن تأثير هؤلاء على شخصية الهند ووجهتها يتجاوز تأثيرات أرباب الهند كلهم، ومديري شركات البرمجيات، والعلماء النوويين مجتمعة. فكل منهم كافح التقاليد التراثية الدينية في الهند. ثم رفضها اثنان في نهاية المطاف، في حين استغل الثالث، غاندي، المشاعر الدينية للجماهير ووجهها للحصول على استقلال الهند.

مرت ثلاثة أجيال منذ أن حصلت الهند على استقلالها من الحكم البريطاني «في منتصف ليلة» الخامس عشر من أغسطس عام 1947. مرت ثلاثة أجيال أيضاً منذ أن اغتيل غاندي، الزعيم الروحي والإستراتيجي لحزب المؤتمر الهندي الذي قاد النضال في سبيل الحرية، وهو في طريقه ليؤدي صلواته المسائية في نيودلهي على يد متعصب يميني هندوسي، اسمه ناثورام غودسي، في الثلاثين من يناير عام 1948. لكن غاندي، الذي كان نجاحه في الحفاظ على النضال السلمي ضد البريطانيين مأثرة استثنائية من مآثر جاذبيته الشخصية، ما يزال مستمراً في تقسيم الهنود ومطاردة أحلامهم. إذ يتركز حتى الآن انتباه عظيم على التأثير التحويلي -والسحري نوعاً ما- الذي مارسه على الناس العاديين، وقدرته على نقل النضال في سبيل الحرية إلى الجماهير الأمية ليلهمها ويحفزها على المشاركة. إن مقدرة غاندي على التحدث بلغة الشعب هي التي نقلت النضال في سبيل الحرية من نادي المحامين الذين درسوا في لندن، وتشبهوا بالإنكليز في لباسهم وسلوكهم، وسعوا إلى «الحكم الإنكليزي من دون الإنكليز»، إلى حركة ارتكزت على الجماهير وشملت الهنود كلهم.

دور غاندي بوصفه معلماً في الإستراتيجية والتكتيكات السياسية معروف للقاصي والداني. لكن قدراً أقل من الانتباه كرس لتأثير فلسفة غاندي المعادية للمادية الدنيوية في تطور الهند منذ عام 1947. مازال هذا التأثير مستمراً حتى الآن بطرق عديدة. فالمجتمعات مثل البشر: ما حدث لهم في سنوات التكوين المبكرة يشكل قراراتهم وشخصياتهم بعد مدة طويلة من اندثار سياقات تلك الأحداث. لكن إن عاد غاندي إلى الهند اليوم، فسوف يفاجئه ما يراه. فالهند في أوائل القرن الحادي والعشرين أصبحت بلداً أكثر ثقة بالنفس، ومكاناً أكثر خضوعاً للمادية الدنيوية والعولمة. في عام 1991، غيرت الهند بصورة حادة

مسارها الاقتصادي حين فككت نظام التحكم الصارم والتراخيص (المعروف باسم «ترخيص راج» الذي تبنته بعد الاستقلال)*. ومنذ ذلك الحين، ظل اقتصاد الهند في حالة ارتقاء وصعود، لتقنص حصة متعاظمة باطراد من أسواق البرمجيات في الولايات المتحدة وأوروبة، وتبدأ بتنمية قطاع تصنيعي يمكن أن ينافس في الأسواق العالمية. واكتسبت الهند أيضاً زخارف القوة العسكرية وبهارجها المميزة للقوة العظمى الطامحة: النخب الهندية تتجادل علناً حول متى -وليس هل- تطور الهند صواريخ نووية عابرة للقارات. أما الطبقة الوسطى الحضرية (في المدن) التي يتكلم أفرادها الإنكليزية فهي مشبعة بالثقافة الاستهلاكية كأنها دين جديد. ولو لم يحرق جثمان غاندي، لرجف في قبره!

في الوقت ذاته، تبقى الهند اليوم وطناً لأكثر من ثلث البشر الذين يعانون حالة مزمنة من سوء التغذية (حسب تصنيف الأمم المتحدة)، وتتخلف في متوسط العمر المتوقع ونسبة الأمية عن كثير من البلدان النامية، خصوصاً الصين. فما يزال زهاء 750 مليون إنسان من عدد سكان الهند البالغ 1.1 مليار نسمة يعيشون في قراها التي يبلغ عددها 680 ألف قرية، نصفها تقريباً يفتقر إلى الطرق المعبدة الصالحة للاستخدام في المواسم كلها، في حين يتعذر على أعداد ضخمة منهم الوصول إلى مراكز الرعاية الصحية الأولية الكفؤة أو المدارس الابتدائية المؤهلة. إضافة إلى أن نصف نساء الهند أميات، ونسبة كبيرة من غير الأميات لا يتجاوز تعليمهن القدرة على كتابة أسمائهن.

الهند أيضاً بلد مازالت النخبة فيه ملتزمة باعتقاد غاندي -الذي أعلنه في سياق النضال في سبيل الحرية وسعى عبره إلى توسيع جاذبيته- بأن القرية يجب أن تبقى اللبنة الأساسية للمجتمع الهندي. صحيح أن كثيرين، ومنهم نهرو، أول رئيس وزراء للهند وتلميذ غاندي، قدموا الحجة ضده، لكن الجدل مستمر حتى اليوم. الهند تتمدن ببطء ويصعب تخيل ما يمكنه وقف التوسع المستمر لمدنها. لكن أنصار غاندي مستمرون في تبني الاعتقاد القائل بوجوب أن تحتل القرية مكاناً مقدساً في مركز الأمة الهندية. وما يزال تأثيرهم مستمراً في عرقلة تحسين التخطيط للمدن.

* يقول المنتقدون إن النظام كان يفرض على كل عمل في الهند، باستثناء التنفس، الحصول على ترخيص مسبق من الحكومة. (م)

كتب غاندي يقول في رسالة بعث بها إلى نهرو: «أنا على قناعة بأن الهند إذا نالت حريتها الحقيقية، ونال العالم حريته عبر الهند أيضاً، فلابد أن تُدرك -عاجلاً أم آجلاً- حقيقة أن على البشر أن يعيشوا في القرى لا في المدن؛ في الأكواخ لا في القصور. ولن يستطيع مئات الملايين من البشر العيش معاً في سلام وأمان في المدن والقصور. وليس لهم حينذاك من سبيل سوى اللجوء إلى العنف والكذب» [7]. وفي أهم كتاب ألفه غاندي، وربما أكثر الكتب المرجعية اقتباساً اليوم، «هند سواراج» («الحكم الذاتي للهند»)، يقول: «حرروا القروي من فقره المزمن وأميته فتظهر أفضل عينة لما يجب أن يكون عليه المواطن الحر المثقف.. إن التزام المبادئ الأخلاقية يعني المعرفة الناجزة بعقولنا وعواطفنا. وبذلك، نعرف أنفسنا. فإذا صدق هذا التعريف، لن تجد الهند، مثلما أظهر عديد من الكتاب، شيئاً تتعلمه من الأمم الأخرى».

يجب رؤية اعتزاز غاندي الثقافي، وبعض من ازدرائه العميق للحداثة، في سياقهما التاريخي، أي بوصفهما رداً تكتيكياً وفعالاً على الإهانات التي كثيراً ما وجهها المستعمرون إلى «الهند الجاهلة المتخلفة»، وطريقة لزيادة تقدير الذات لدى الجماهير. كان غاندي مؤهلاً إلى حد مدهش لفعل ذلك. فقد ولد في ولاية غوجارات (في غرب الهند)، وحصل على شهادة الحقوق من لندن في تسعينيات القرن التاسع عشر. وقبل عودته إلى الهند عام 1913، جذب اهتمام العالم في جنوب إفريقيا، حيث عارض تبني القوانين العنصرية ودخل السجن. وهناك، طور إستراتيجيته القائمة على مبدأ اللاعنف والعصيان المدني التي سوف يستخدمها بفاعلية وتأثير في الهند.

لكن الفلسفة الغاندية ليست مجرد تكتيك لتعزيز النضال في سبيل الحرية ودعمه. بل تتعلق أيضاً بكيفية تنظيم المجتمع ومعيشة أفراده. وهي مستمرة في ممارسة التأثير في وعي ولاوعي معظم أفراد الطبقة المثقفة في الهند اليوم. ثمة مثال دائم يمكن الاستشهاد به: من دون تقدير أهمية تأثير غاندي في التفكير الاقتصادي، يصعب تفسير السبب الذي جعل الهند تعيق قدرة قطاعها النسيجي على النمو إلى حجم يتناسب مع إمكاناته. ومثلما يعرف أي طالب يدرس التطور الاقتصادي، فقد لعب إنتاج الصناعة النسيجية

دوراً حاسماً في التصنيع في معظم المجتمعات، بدءاً ببريطانية في القرن الثامن عشر، وصولاً إلى الصين في القرن الحادي والعشرين. ويمكن العثور على تراث غاندي في التعرفة الجمركية المتحيزة التي مازالت الهند تفرضها على المنسوجات الصناعية لصالح القطن* (حين يتركز معظم طلب التصدير على الأولى)، وفي الأنظمة والقواعد التي تحبط حوافز شركات النسيج وتمنعها من النمو لتتجاوز حجم «صناعة الأكواخ» المحلية، وحيث تعاقب النجاح التجاري وتكافئ الفشل وتحميه.

تراخت صرامة بعض هذه السياسات منذ أن غيرت الهند مسارها الاقتصادي عام 1991، وكثير من الذين يعارضون الآن إدخال مزيد من التسهيلات لا يفعلون ذلك انطلاقاً من أفكار غاندي، بل لأنهم يمثلون مصالح ضيقة تستفيد من الوضع القائم حالياً. لكن أكثر البلدان المنافسة للهند ديناميكية ونشاطاً، خصوصاً الصين، ليست مضطرة لمصارعة تركة تراثية خلفها قديس معاصر إذا جاز التعبير. لقد جرى الاستشهاد مراراً على مدى السنين بما قاله ساروجيني نايدو، أحد أبطال النضال في سبيل حرية الهند، عن غاندي، لكن يستحق تكراره هنا: «يكلفنا إبقاء أتباع غاندي في حالة فقر مالاً كثيراً». العداد ما يزال دائراً. لكن هناك دروساً مهمة تستمد من غاندي فيما يتعلق باحترام البيئة الطبيعية يجدر بالهنود إعادة اكتشافها، مثلما سأقدم الحجة في موضع لاحق من هذا الكتاب.

بيمارو أمبيدكار أقل شهرة من غاندي خارج الهند. لكن بالنسبة إلى ملايين الهنود يعد شخصية أكثر أهمية. إذ يمكن العثور على تماثيله في القرى في طول شبه القارة المكتظة بالسكان وعرضها. وخلافاً لغاندي، الذي تصادم معه مراراً وتكراراً وبأسلوب حاد ومرير غالباً، لم يجد تناقضاً بين قبول العلم الحديث والتقانة المتقدمة ومعارضة الحكم الاستعماري. لكن بوصفه أول زعيم معترف به يأتي من الطبقة التي كانت تعرف سابقاً بـ «المنبوذين» وتدعى اليوم «داليت» (أي «المضطهدين أو الممزقين إرباً إرباً») فقد

* صحيح أن استخدام غاندي للمغزل البسيط لإشاعة المعرفة بنظام التعرفة الاستغلالي الذي فرضه المستعمرون، قد خدم أهداف النضال في سبيل الحرية خدمة عظيمة، إلا أنه فقد معناه المنطقي، مثلما أشار أمارتيا سين، حين أصبح سياسة اقتصادية بعد الاستقلال.

منح المهمشين في الهند أول أمل بالارتقاء وتجاوز وضعهم الاجتماعي الموروث*. ورأى في نظام الطبقات أعظم الشرور الاجتماعية في الهند، لأنه يعامل ملايين الناس بوصفهم أدنى مرتبة من البشر نتيجة مولدهم وحسب. أما الأمل الذي منحه للداليت فربما لم يتحقق حتى الآن بصورة كاملة أو حتى جزئية، وذلك وفقاً للخطبة المؤثرة التي ألقاها نهرو عند الاستقلال. لكن فيه ما يكفي ليجعل الداليت الذين يقدر عددهم بمئتي مليون، وذاقوا طعم الحرية والحراك الاجتماعي منذ 1947، يشعرون بأن من المستحيل التراجع إلى ذهنية الاستسلام والخضوع وحتى الغياب عن النظر التي كانت مطلوبة منهم على مر العصور والدهور.

استكمل أمبيدكار، أول هندي من طبقة المنبوذين يدرس في الخارج، دراساته العليا في جامعة كولومبيا في نيويورك، ثم تأهل لممارسة المحاماة في لندن عام 1916، وكان أيضاً مشاركاً رئيساً في صياغة دستور الهند عام 1950، الذي ساوى بين الأفراد أمام القانون ومنح البالغين الهنود كلهم حق التصويت، بغض النظر عن الطبقة أو أي هوية أخرى. المحامي أمبيدكار هو الذي ضحك أخيراً وهزم معارضيه الغانديين أثناء صياغة المسودة، حين استخدم معرفته المتفوقة بالقانون لتحييد مطالب الطبقة العليا الهندوسية.

ونجح في نقل عدة فقرات -كانت تطالب، مثلاً، بحظر ذبح البقر، وتحريم شرب الكحول، ومنح الأولوية الاجتماعية للقرية- من قسم «الحقوق الأساسية» للدستور (الملزمة قانونياً) إلى قسم «المبادئ التوجيهية» التي كانت مجرد قائمة من الرغبات غير الملزمة.

انبثق رأي أمبيدكار بالقرية من تجربته الخاصة، التي عانى فيها الإذلال عندما كان طفلاً، حين رفض الحلاقون قص شعره ومنع من دخول المقاهي، ولم تهدئ غضبه قليلاً إلا الفرص التي منحت له في بومباي ليدرس. ومع الاعتذار للقراء الهنود، وكثير منهم يحفظون هذه الكلمات عن ظهر قلب، فإن رأي أمبيدكار بالقرية الهندية هو: «حب المثقف

* رفض أمبيدكار اسم «هاريجان» (حرفياً: «أبناء الله») الذي أطلقه غاندي على المنبوذين، بوصفه استعلائياً.

الهندي لمجتمع القرية لا تحده حدود طبعاً، إن لم يكن يثير الشفقة.. ليست القرية سوى مجرور المحلية، ووكر الجهل، وجحر التعصب والطائفية»*[8].

وصف أمبيدكار، الذي ما يزال تمثاله حتى اليوم -بل خصوصاً اليوم- يطلق ردود فعل عنيفة كلما حاول أحد إقامته، وصف التراتبية الطبقية بأنها «سلم صاعد من الكراهية وسلم نازل من الازدراء». قال ميغاستينيز، مبعوث الإمبراطور السلوسي في بلاط باتاليبوترا، القوة المهيمنة على الهند آنذاك (300 ق.م)، ملاحظاً عن القواعد والأنظمة الطبقية في الهند: «لا يسمح لأحد بالزواج من خارج طبقته، أو يزور أحداً إلا منها»[9]. وظل هذا سائداً طوال أكثر من ألفي سنة، لكنه لم يعد يفيد في وصف الهند بدقة.

يتضح من كتابات أمبيدكار أنه أمل بأن تساعد الديمقراطية في تفكيك النظام الطبقي. لكن ذلك لم يحدث، على الأقل ليس بالطريقة التي أمل بها. فمازالت الطبقة، بوصفها هوية سياسية، حية ونشطة وفاعلة في الهند اليوم، حتى وإن انقطعت عن جذورها الطقسية والاقتصادية. ولا ريب في أن المحامي المنتمي إلى طبقة الداليت سيصاب بالرعب من الاختلاس وحكم المافيا المقنع بغلالة رقيقة اللذين يربطهما الناس بسياسة الطبقة الدنيا في الهند اليوم، خصوصاً في الولايات المكتظة بالسكان والأقل تطوراً في شمال الهند. وسيصاب أيضاً بخيبة أمل حين يلاحظ أن كثيراً من أحزاب الطبقة الدنيا اليوم لا تسعى لإلغاء النظام الطبقي بل لمجرد تحسين موقعها إزاء الطبقات الأخرى، إما عبر التهييج لزيادة حصتها من الوظائف الحكومية أو بناء مزيد من النصب التذكارية لزعمائها وآلهتها. لم تفسح الطبقة الاجتماعية، كما توقع كثيرون، المجال للطبقة بمعنى الولاء السياسي. ففي الهند: «لا تدلي بصوتك بل تصوت لطبقتك».

ومع ذلك، فإن المهنة الموروثة كما حددتها الطبقة تتآكل تدريجياً. فسكان المدن في الهند، وكثير من سكان القرى، لم يعودوا مجبرين على أداء وظائفهم الموروثة، مع أن

* تعني الطائفية في الهند الولاء للجماعة الإثنية لا المجتمع عموماً، وتتعلق عادة بالدين والطبقة أيضاً. أما المعنى الغربي الذي يشير إلى العيش المشترك أو المشاركة، فلا يستخدم في هذا الكتاب.

كثيرين منهم يقومون بها بدافع الحاجة والضرورة. على سبيل المثال، يمكن العثور على برهميين من الطبقة العليا يعملون في تجارة الجلود، وهي مهنة محرمة سابقاً؛ وطباخ من الداليت يحضر الطعام لأفراد الطبقات الأخرى – وهو أمر لا يمكن تخيله حتى منذ مدة قريبة. الزواج المختلط بين الطبقات يزداد أيضاً، مع أنه ما يزال نادراً جداً في القرى حيث يعيش ثلثا سكان الهند حتى الآن. إذاً، من المغري الاعتقاد بأن التاريخ يسير وفقاً لرأي أمبيدكار.

ربما يكون أكبر شبح يخيم على الهند اليوم هو شبح جواهرلال نهرو، الذي يمارس ميراثه تأثيراً تقسيمياً مثله مثل غاندي أو أمبيدكار، لكن دوره في تشكيل شخصية الهند الحديثة، بوصفها دولة أو ديمقراطية أو مجتمعاً مدنياً، يتجاوز دور الاثنين الآخرين. لم يتمكن أحد من البقاء في سدة الحكم مثل نهرو، الذي شغل منصب رئيس الوزراء بين عامي 1947 – 1964، ولم يقترب منه في هذا السياق سوى ابنته، إنديرا غاندي التي شغلت المنصب طوال ثلاث عشرة سنة. ويمكن اقتفاء أثر عدد من التناقضات المحيرة في الهند اليوم بالعودة إلى نهرو. فمع أنه كان مؤمناً إيماناً قوياً بالحداثة، إلا أنه هيمن على أقرب شيء في الهند إلى العائلة الملكية الإقطاعية، ألا وهي أسرة نهرو – غاندي الحاكمة*. وفي الحقيقة، كان الثاني في العائلة، نظراً لأن والده موتيلال نهرو كان رئيساً لحزب المؤتمر وواحداً من أوائل أعضائه بعد تأسيسه عام 1885.

بعد اغتيال غاندي، أصبح نهرو الزعيم الوطني الأول في الهند. لكنه اعتاد أن يشير إلى نفسه مداعباً بالقول: «أنا آخر إنكليزي يحكم الهند». درس نهرو في هارو، إحدى أرقى المدارس العامة في بريطانية، ثم في جامعة كمبريدج، قبل أن يتأهل محامياً في لندن. ومثل هو ووالده نموذج المحامين المتأنكلزين الذين هيمنوا على حزب المؤتمر قبل أن يلبسه غاندي ثوب القطن المغزول في المنزل. وحين كان في باريس في إجازة من

* تزوجت أنديرا فيروز غاندي، وهو صحفي (وزير نساء) من شمال الهند (لم تربطه صلة قرابة بالمهاتما). كان فيروز، الذي توفي في سن مبكر نتيجة أزمة قلبية، ينتمي إلى طائفة البارسيين الزاردشتيين. أما أشهر الأسماء العائلية في الطائفة فهو داروالا (الخمّار). ولا يمكن أن نتأكد هل كانت عائلة نهرو – داروالا ستحقق هذا القدر من النجاح.

كمبريدج، كتب إلى والده عن مسرحية لشكسبير شاهدها تمثل بالفرنسية: «لا أظن أن الممثلين يعرفون هل هي مسرحية إيمائية أم مأساة!»[10]. ومع أنه قبل منطق غاندي بالتصرف مثل الهنود وارتداء ثيابهم، إلا أنه لم يفقد أبداً هيئة أو سلوك النبيل الإنكليزي الإدواردي. وفي المرات العديدة التي اعتقله فيها البريطانيون وسجنوه، اعتاد أن يتناول الفطور الإنكليزي التقليدي المؤلف من رقائق الذرة (كورن فليكس)، والبيض المسلوق، وشرائح لحم الخنزير والبندورة، قبل أن يسلم نفسه إلى سجانيه. في حين كان غاندي يكتفي بقليل من عصير الليمون وكأس من حليب الماعز.

لكن إعجاب نهرو بالإنكليز وتشبهه بهم تجاوزا نطاق ذوقه الخاص. فحين أصبح رئيساً للوزراء عام 1947 اتخذ قراراً بالاحتفاظ بالموظفين العاملين في الخدمة المدنية الاستعمارية النخبوية، الذين كان نصفهم تقريباً من الهنود. وفي حقبة كان فيها المتواطئون مع المستعمرين في المستعمرات الأخرى المستقلة حديثاً يعدمون، أو يرسلون إلى معسكرات الاعتقال، أو يهربون إلى المنافي، أو على أقل تقدير يخسرون وظائفهم، كان نهرو يدعوهم لشرب الشاي ويقرأ أوراقهم. بل وصل به الأمر حد حث اللورد ماونتباتن، آخر حاكم بريطاني للهند، على البقاء سنة أخرى في منصب رئيس الدولة*.

يمكن رؤية ميراث نهرو «الإنكليزي» -إذا جاز التعبير- في كل ركن من أركان الهند في القرن الحادي والعشرين، عبر نظام جباة الضرائب الذي لم يدخل عليه سوى تعديلات طفيفة، حيث ما يزال هؤلاء يمارسون سلطة تنفيذية وقضائية على الوحدات الإدارية الفرعية في الأقاليم. ويعد هذا مصدراً للقوة والضعف في آن. فهو مصدر قوة لأن الخدمة الإدارية الهندية توفر اللحمة التي تساعد في بقاء البلد موحداً ذهنياً وعاطفياً ونفسياً، لكنه مصدر ضعف لأن موظفي الخدمة هم من النخبة الذين لا يمكن طردهم من عملهم، والذين يعدون الديمقراطية منافساً لدوداً. أما العلاقة المتوترة، والغريبة أحياناً، بين موظفي الخدمة الإدارية الهندية وزعماء الأقاليم المنتخبين (نصف المتعلمين غالباً) فتمثل موضوعاً متكرراً في هذا الكتاب.

* ثمة علاقة حميمة ربطت بين نهرو وإدوينا ماونتباتن، زوجة نائب الملك، ويمكن أن تمثل حافزاً إضافياً.

يمكن رؤية طابع نهرو الإدواردي أيضاً في نزعة الدولة للظهور في كل مكان، وهي نزعة تقاسمها مع كثير من الإنكليز اليساريين من الطبقة العليا في تلك الحقبة -خصوصاً الفابيين الذين اعتقدوا أن الاشتراكية يمكن أن تطبق بأسلوب سلمي بواسطة الدولة عبر طبقة مؤهلة من التكنوقراط «الأفلاطونيين». ومن حسن حظ الهنود أن نهرو كان أكثر تأثراً بالفابيين الإنكليز منه بالبلاشفة الروس. لكن نموذج نهرو الاقتصادي، حيث تقود الدولة مسيرة البلاد نحو التصنيع على حساب الاستهلاك، الذي استخف به بوصفه عبثاً طائشاً، والإصلاح الزراعي الفعال، الذي شعر بأن من المتعذر تحقيقه كاملاً في النظام الديمقراطي، بقي صامداً على الرغم من القرار ببدء تفكيك نظامه الشهير «ترخيص راج» عام 1991.

ما تزال أصداء كراهية نهرو للمشروعات الخاصة والسعي لجمع المال تتردد بقوة حتى اليوم، مع أن صوتها ضعف منذ عام 1991. لكن بوصفه من طبقة البراهمة -على الرغم من نفوره الصادق من النظام الطبقي، إلا أنه مازال يعرف حتى اليوم باسم الباندیت نهرو (لقب تشريفي يشير إلى أصله الطبقي)- فإن من السهل تمييز آثار تعقيداته الشخصية في مواقف كثير من الهنود المنتمين إلى الطبقة العليا. كتب نهرو منتقداً بازدراء «حضارة التجار الهندوس»، وقال إن الاشتراكية ستؤدي إلى نهاية «مجتمع التملك». وهؤلاء طبقة من التجار الصغار والمرابين أدنى منزلة من طبقة البراهمة. الهند المعاصرة تتبنى رأياً ازدواجياً غامضاً تجاه جمع المال يدين بمعظمه إلى نهرو.

لكن أهم ميراث خلفه نهرو، وظل على حاله على مر السنين، هو علمانيته وازدراؤه للطائفية. فقد اعترف بإلحاده، ولم يستطع إخفاء ازدرائه للتدين والشعائر والطقوس الدينية كلها. لقد تحولت هذه النزعة، الشائعة أيضاً بين أفراد الطبقة العليا الإنكليزية في عصره، نحو الشك والارتياب بالحماسة الروحية أو اللاهوتية، تحولت إلى نوع من الإحباط من غاندي، الذي كان يجلس -مجازياً- وأحياناً فعلياً، عند قدميه.

كتب نهرو يقول: «لقد أصبح الدين كما يمارس في الهند مثل الشيخ والبحر بالنسبة لنا، ولم يكتف بقصم ظهورنا، بل خنق، وكاد يقتل، أصالة الفكر أو الذهن». في أغلب

الأحيان، تساهل نهرو مع، بل أعجب بقدرة غاندي على التحدث بلغة الجماهير. لكن عندما كان المهاتما يتحدث عن تنفيذ إرادة الله، اعتاد نهرو أحياناً أن يرد بغضب قائلاً: «أكثر ما يزعج إشاراته [غاندي] المتكررة إلى الله -الله جعله يفعل هذا، والله حدد له موعد الصوم..»[11].

لكن ما أيأس الهنود كلهم تقريباً، ومنهم نهرو، أن البلاد قسمت عام 1947 لإنشاء وطن مستقل لمسلمي الهند، وهذا أطلق شرارة أعمال عنف راح ضحيتها قرابة مليون شخص، وأجبرت اثني عشر مليوناً على عبور الحدود المرسومة حديثاً. أما إصرار نهرو على منح المسلمين حقوقاً متساوية في دولة هندية علمانية ومستقلة فقد أكسبه كراهية لا تفنى من الإحيائيين الهندوس اليمينيين. وخلافاً لغاندي، توفي نهرو في سريره. لكن تراثه العلماني تعرض لهجمات متكررة نجمت أحياناً من انبعاث اليمين الهندوسي المتطرف منذ منتصف ثمانينيات القرن العشرين. ومما يكشف كثيراً من الحقائق أن الحركة الإحيائية الهندوسية، بقيادة جناحها السياسي، حزب بهاراتيا جاناتا («حزب الشعب الهندي»)، الذي ترأّسَ على حكومةٍ ائتلافية نقلت الهند إلى القرن الحادي والعشرين، قد استخدمت أسماء وصور الرموز الوطنية كلها -ومنها غاندي وأمبيدكار. لكن نهرو يبقى الشخصية المكروهة رقم واحد لليمين الهندوسي حتى بعد أربعين سنة من وفاته. الشعور متبادل كلية: كتب نهرو يقول: «قيل إن في الهند خمسة ملايين ونصف المليون من الزهاد المتجولين والمتسولين. بعضهم صادقون حقاً. لكن لا ريب في أن معظمهم ليس لهم أي نفع، ولا رغبة لهم إلا في الاحتيال على الآخرين والعيش على ما يكسبونه دون أن يعملوا»[12]. لا يوجد تقدير دقيق لعدد الزهاد المتجولين في الهند اليوم، مع أن السكان قد تضاعفوا ثلاث مرات منذ أن أدلى نهرو بهذه الملاحظة.

عنوان هذا الكتاب: «على الرغم من الآلهة: النهضة الغريبة للهند الحديثة»، استمد إلهامه إلى حد ما من توكيد نهرو على أن أعظم مصادر قوة الهند ليست متموضعة حصراً، ولا لزوماً، في تقاليدها الدينية. إذ يمكن العثور على مزايا الهند في ديمقراطيتها الحيوية، التي قلبت التوقعات لا بقدرتها على البقاء فقط، بل بترسخها وتجذرها في عمق

ثقافة الهند. ويمكن العثور عليها أيضاً في تقاليدها التراثية التعددية، التي زودت البلاد بمئات السنين من الممارسة في إدارة الصراع الاجتماعي دون اللجوء الآلي إلى العنف. صحيح أن تقسيم البلاد على أسس دينية، والهزات الزلزالية اللاحقة قد أدت إلى مذابح سفكت فيها دماء غزيرة، لكن لا يوجد في تاريخ الهند ما يشابه عمليات القتل الجماعي التي عانتها أوروبة. إن مصادر قوة الهند يمكن العثور عليها أيضاً في النبع الثر لرأسمالها الفكري وقدرتها التقانية، الذي يساعدها اليوم على الانطلاق للعب دور عالمي يناسب حجمها وتأثيرها.

لكن مثلما يشير العنوان الجانبي، فإن طبيعة نهضة الهند غريبة، أو غير عادية. فمن غير العادي وفقاً لمعايير بلدان عديدة أن تبرز الهند بوصفها قوة اقتصادية وسياسية مهمة على مسرح العالم، في حين تبقى مجتمعاً دينياً، وروحانياً، ومؤمناً بالخرافات إلى حد ما. وعلى نحو مشابه فإن حقيقة اعتناق الهند الديمقراطية الكاملة، إلى جانب غيرها من الأمم الكبرى، قبل أن تتشكل فيها طبقة وسطى كبيرة أو أغلبية متعلمة من الناخبين، تعد أمراً فريداً آنذاك وتبقى كذلك حتى الآن.

اقتصاد الهند يتوسع الآن بسرعة دون أن يضطر للمرور بثورة صناعية عريضة القاعدة – وهذا أمر غير عادي أيضاً. تبقى الغالبية العظمى من القوة العاملة الهندية في القرى. أما محرك الهند الاقتصادي فلا تشغّله المصانع أو تصنيع المنتجات المادية، بل صناعاته الخدمية القادرة على المنافسة. ربما يمكن لهذا الوضع أن يصحح نفسه بنفسه بالتدريج. لكن في الوقت الراهن، يتمتع قطاع الخدمات في الهند بثقل اقتصادي جعله يمتلك أوجه شبه عديدة بالاقتصادات الناضجة المتطورة، في الولايات المتحدة أو بريطانية مثلاً.

نهوض الهند أمر غير عادي أيضاً بسبب طبيعة سياستها المتوترة والفظة أحياناً. إذ لا توجد ديمقراطية أخرى تضطر للعمل مع ائتلافات مكونة من أربعة وعشرين حزباً. إن الحكومة المتشظية والمتنافرة ستظل القاعدة -لا الاستثناء- في الهند في المستقبل المنظور على الأرجح. ووفقاً لمعظم التوقعات، لابد أن يبطئ الفساد والطبيعة المتشككة

للإدارة عجلة تطور الهند – وهما يفعلان ذلك منذ الآن. مع ذلك، فإن «الاقتصاد ينمو في الليل حين تكون الحكومة نائمة»، مثلما هي الحال في إيطاليا (كما تقول الدعابة الشائعة). لقد توسعت الهند على مدى السنوات العشرين الماضية بمعدلات لم تتجاوزها سوى الصين.

أخيراً، يعد نهوض الهند أمراً غير عادي لأنه مرغوب علناً من بلدان أخرى، خصوصاً الولايات المتحدة، بل تسهله إلى حد ما. فكثير من بلدان العالم تخشى –صواباً أم خطأ– نهوض الصين وتنامي قوتها العسكرية في العقود القادمة، واستنتجت أن الهند هي البلد الوحيد الذي يتمتع بحجم كاف وذهنية مناسبة ليشكل ثقلاً موازناً لجاره العملاق المتنامي على الطرف الآخر من الهملايا. في بعض الأحيان، تصاب الهند بالذعر والغضب من الاقتراح الذي يدعوها للعب هذا الدور. لكن شاءت أم أبت (بغض النظر عن المظاهر، تستمتع الهند بجلب الانتباه)، يمثل دورها بوصفها ثقلاً موازناً للصين عاملاً مفتاحياً في حسابات صناع السياسة في الغرب وغيره. وربما تكون أهم قطعة للهند على رقعة الشطرنج الجيوسياسية هي ترسانتها النووية المتوسعة.

في الهند، تحدث الأشياء الأقل توقعاً. والعكس صحيح. وهذا مصدر ثابت للبهجة والإحباط للعيش في الهند. فقد طلبت مقابلة أبي بكر زين العابدين عبد الكلام، رئيس الهند، للتحدث معه عن المشروع الهندسي الضخم لربط أنهار الهند معاً. معارضو المشروع (الذي لم ينطلق بعد عند كتابة هذه الصفحات) يسمونه المشروع «الفرعوني». في حين يقول المؤيدون إنه سيحل مشكلات الهند الناجمة عن الجفاف والطوفان إلى الأبد.

كان عبد الكلام، الذي لا يتمتع إلا بسلطات مقيدة بصرامة في النظام البرلماني الهندي المشيد على الطراز البريطاني، من مناصري المشروع. كنت أتطلع إلى سماع آرائه. لكن سكرتيره الخاص قال لي على الهاتف: «لا يمكن أبداً مقابلة الرئيس –فرؤساء الهند لا يجرون مقابلات مع الصحفيين». شعرت بالإحباط وأوشكت على وضع السماعة، حين تابع كلامه: «لكن من دواعي سرور الرئيس أن يدعوك لشرب قدح من الشاي وتجاذب أطراف الحديث».

عبد الكلام، المهندس والعالم، معروف في الهند بأنه «أبو الصاروخ النووي»، لأنه كان مسؤولاً عن برنامج تطوير الصواريخ في الهند على مدى سنوات عديدة. ورئس أيضاً مؤسسة أبحاث الدفاع والتنمية حين أجرت الهند أول تجربة علنية لاختبار الرؤوس الحربية النووية في مايو عام 1998*. ومما سبب القلق لبعض الهنود -لكن ليس لكلهم بالتأكيد- امتداح عبد الكلام للتجارب الناجحة، التي أجريت تحت الأرض في صحراء راجستان في غرب الهند، بالكلمات الآتية: «شعرت بالأرض تزلزل تحت أقدامنا ثم ترتفع مذعورة. كان المشهد بديعاً».

استقبلت التجارب الثلاثة باحتفالات عارمة في الشوارع وزعت فيها الحلوى في مختلف أرجاء الهند، وهذا سبب قلقاً في واشنطن وغيرها من عواصم العالم. بعد بضعة أيام لحقت باكستان بالركب وأقيمت احتفالات صاخبة هناك. ومنذ ذلك الحين، صنفت شبه القارة ضمن «المناطق المعرضة لأشد الأخطار النووية في العالم» (أول من استعمل العبارة الرئيس كلينتون)، على الرغم من محاولات الهند وباكستان «تطبيع» العلاقات بينهما وحل النزاع العالق منذ أمد طويل حول ولاية كشمير على سفوح الهملايا. ولم تبدأ الولايات المتحدة تعديل، ثم تغيير، حكمها على الهند بوصفها قوة نووية إلا في عهد إدارة بوش بعد عام 2001.

يصعب على من يعيش في المنطقة تخيل اندلاع حرب نووية، على الرغم من اختطار وقوع حادث بطريق الخطأ أو نتيجة سوء فهم: لا بسبب باكستان، الخاضعة عادة لحكم العسكر، وتعد ترسانتها النووية أداة حربية حقيقية؛ بل بسبب الهند، التي ترى رادعها النووي رمزاً افتراضياً مجرداً سوف يكسبها الاعتراف بها قوةً عظمى. قال الرئيس السبعيني: «لا، نحن لا نتحدث عن الأسلحة النووية. هل تريد قطعة بسكويت؟». سئمت بسرعة الحديث عن موضوع الأنهار، حيث لم يضف الرئيس إليه شيئاً جديداً، وعلى أي حال، كان الحديث غير رسمي وغير مسجل، ولذلك لن يفيد كثيراً. ومن منظور المراسل الصحفي، شعرت أن من الخطأ عدم توجيه دفة الحديث إلى موضوعات أكثر أهمية. لكن محاولاتي ذهبت هباء.

* كانت الهند قد أجرت «تجربة نووية سلمية» عام 1974 (مع ما في كلمتي «نووية» و«سلمية» من تناقض).

المرة الثانية التي رأيت فيها الرئيس كانت من بعيد أثناء العرض السنوي الذي يقام احتفالاً بعيد الجمهورية في السادس والعشرين من يناير. في مثل هذا اليوم من عام 1930، قام غاندي ونهرو وغيرهما من زعماء حزب المؤتمر برفع علم الهند الثلاثي الألوان في تحد سافر للبريطانيين. وبعد مرور خمسة وسبعين عاماً، لمحت عبد الكلام يجلس في مقصورته الرئاسية مع عدد من ضيوف الشرف يشاهدون تشكيلات ضخمة من الدبابات والطائرات والمدافع والصواريخ القادرة على حمل رؤوس نووية، تمر عبر الشارع العريض الذي يربط القصر الرئاسي ببوابة الهند. أعلن صوت جهوري عبر مكبرات الصوت بنبرة تناسب وصف ملكة جمال الكون: «وهذا صاروخ آغني 2 القادر على حمل رؤوس نووية الذي يبلغ مداه 1500 كم». لم أستطع رؤية تعابير الرئيس. لكن أحسب أنه سعيد.

تنامت المشاعر القومية الهندية كثيراً منذ حول غاندي سياسة اللاعنف واللاتعاون إلى شعار يمثل هوية أمته البازغة. ومن المؤكد أنه لن يشعر بالسرور عندما يكتشف أن الهند تمتلك أسلحة نووية أو أن صواريخها تحمل اسم آلهة الهندوس القديمة -آغني مثلاً هو إله النار. لكن على الرغم من ذلك، لن تكون الهند اليوم غريبة على غاندي بحيث لا يستطيع تمييزها، ولا حتى على أمبيدكار أو نهرو.

مع أن هذا الكتاب لن يتسرع أو يتهور بحيث يتنبأ بالمستقبل، إلا أن هناك شيئاً أو اثنين يمكن اقتراحهما: معظم الهنود سوف يتشبثون باعتزازهم بتحول الهند إلى دولة نووية، لأن ذلك يثبت أنهم حققوا إنجازاً تقانياً مشهوداً دون مساعدة تذكر أو تشجيع من الخارج. وبالمقابل، فإن معظم تقانة باكستان النووية أتت من الصين مباشرة. كما أنه يضع الهند على قدم المساواة مع القوى الكبرى. وربما يكون تفاخراً متباهياً في غير محله، لكن يجب عدم الخلط بينه وبين العدوانية. فخلافاً لكثير من البلدان الأخرى في الجوار، ليست لدى الهند قضايا عالقة، ولا تسعى للاستيلاء على أراض جديدة. ومثلما يقول الدبلوماسيون، فإن الهند هي قوة الأمر الواقع.

وإذا تقدمنا قليلاً نجد أن بروز الهند قوةً اقتصادية وعسكرية قوية في الجيل القادم يمثل ثقلاً يضاف إلى، ولا يطرح من، الاستقرار العالمي.

صحيح أن هذا الاستطراد يقترب من التوقع النبوئي، وهو فن أتركه عادة إلى أندريه، و«الأم»، وغيرهما، لكن مهما كانت نقاط ضعف الهند أو عيوبها ونواقصها، وهذا الكتاب يتطرق إلى أهمها، فإن التوسع الإقليمي يمكن بالتأكيد إزالته من اللائحة. ومثلما رأينا، فإن التوسع الروحي أمر مختلف تماماً.

هوامش

1- انظر:.«http://www.indiayogi.com/content/indsaints/mother.asp»

2- Ramachandra Guha, 'Churchill's Indiaspeak', in The Hindu Sunday magazine, 5 June 2005.

3- Andre Malraux, Tristes Tropiques, cited in Pankaj Mishra, ed., India in Mind, (Vintage, New York, 2005), p. 172.

4- Amartya Sen, The Argumentative Indian: Writings on Indian History, Culture and Identity (Alien Lane, London, 2005), p. 152.

5- Ibid., p. xiv.

6- أول من روى هذه القصة آرون شوري في خطبة في الذكرى السنوية لديروباي أمباني في موماباي عام 2003. وأكدها للمؤلف أنيل أمباني، ابن ديروباي الأصغر.

7- انظر: M. J. Akbar, Nehru: The Making of India, 3rd edn (Lotus Collection of Roli Books, New Delhi, 2005), p. 469.

8- Christophe Jaffrelot, Dr Ambedkar and Untouchability: Analyzing and Fighting Caste (Permanent Black, New Delhi, 2005), p. 110.

9- Richard Lannoy, The Speaking Tree: A Study of Indian Culture and Society, 2nd edn (Oxford University Press, Oxford, 1971), p.138.

10- انظر:.Akbar, Nehru, p. 71

11- Ibid., p. 239.

12- Ibid., p. 242.